استثمار الأداء الصوتي اللغوي في التواصل مع الجمهور.

د.ابتهال محمد علي البار

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الملك عبدالعزيز-جدة

يرتبط علم الدلالة بكثير من العلوم، ومن هذه العلوم: علم الأصوات، وهو علم يرتبط بالدلالة ارتباطا وثيقا، وفيه مجال خصب للبحث والدراسة لمن يتأمل. ويسلّط هذا البحث الضوء على الأداء الصوتي اللغوي في التأثير على المعنى الذي يتلقاه السامع، ويركز البحث على ظواهر صوتية محددة، هي:

التنغيم Melody.

والنبر: Stress-Accent .

والتزمينTempo .

والإيقاع: Rhythm.

والوقفات. pauses.

مع مناقشة تأثير كل ظاهرة صوتية على المتلقي من الناحية النفسية والعاطفية، ويعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي تم من خلاله عرض الظواهر الصوتية مع تحليل شواهد عربية فصيحة توضّح دور الأداء الصوتي على المعنى، وتكمن أهمية الموضوع في كونه يربط بين مجال الصوتيات وعلم االاتصال والإعلام ، فالإلقاء هو نوع من أنواع الأداء الصوتي والحركي لنصوص مكتوبة أو محفوظة أو مرتجلة و له أنواع و أشكال، وتكمن براعة الملقي أو الإعلاميّ في استثمار الصوت اللغوي والتلوين فيه للتأثير على نفسية السامعين والمتلقين أثناء توصيله للرسالة الإعلامية، وكان من أبرز نتائج وتوصيات البحث: ضرورة استثمار الأداء الصوتي المتميّز في مخاطبة الجمهور مما يعتبر مهارة من مهارات الاتصال يُبرِز من خلالها المتكلمُ مضمون الرسالة التي ينقلها ، ويؤثّر أبلغ الأثر في المتلقين بإثارة أحاسيسهم. مما يجعل الأداء الصوتي الجيّد ركيزة من ركائز الاتصال الناجح.

نستطيع أن نصنف الموضوعات الصوتية المرتبطة بعلم الدلالة في هذا البحث إلى ما يأتي:

1_ الوقفات.

2-التنغيم.
3-النبر.
4- التزمين.

5-الإيقاع.

أولا: الوقفات: وتسمى أيضا الفواصل، وهي نوع من السكون يفصل بين مجموعة صوتية وأخرى، ويسميه بعضهم وقفا أو انتقالا أو مفصلا. وقد يفصل بين صوت وآخر، أو بين كلمة وأخرى، أو بين عبارة وأخرى في الجملة الواحدة، أو بين جملة وأخرى، والفاصل فونيم له تأثير في المعنى.[1]

وهذا المصطلح الدلالي يتفق مع مبحث مهم تناوله علماء التجويد بالبحث والتفصيل وهو"الوقف والابتداء" ، فتحدثوا عن دوره في تغيير المعاني والدلالات، وأضرب لذلك بعض الأمثلة:

- **الوقف التام:**

عرفه علماء التجويد بأنه "الذي يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده"وأكثر ما يوجد في رؤوس الآيات وعند انقضاء القصص.[2]
ونلحظ أن التعريف مقيد بالمعنى، فإذا تمّ المعنى بالوقوف على الكلمة وحسُن الابتداء بما بعدها، كان وقفا تاما، فهو قيد دلالي بالدرجة الأولى، ومن أمثلة هذا الوقف ما يأتي:
قوله تعالى: (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) (البقرة:145-146) والابتداء بقوله: (الذين آتيناهم الكتاب) لكي لا يُوهم أن (الذين آتيناهم الكتاب) صفة للظالمين، وهو مُستأنَف في مدح عبدالله بن سلام وأصحابه، ولو وُصل الكلام لأوهم معنى غير المراد؛ لذا سماه بعض العلماء بالوقف اللازم أو الواجب.

قوله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) (آل عمران:181) يجب الوقف والابتداء بقوله: (سنكتب ما قالوا) لأنه لو وصل الكلام لأوهم أن عبارة (سنكتب ما قالوا) من قولهم، وهي إخبار من الله.

وقوله تعالى: (لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (المائدة:51) والابتداء بقوله: (بعضهم أولياء بعض)؛ لأن الوصل يوهم أن الجملة صفة لأولياء فإذا انتفى هذا الوصف جاز اتخاذهم أولياء، وهو مُحال.[3]

الوقف الكافي:

"وهو الذي يجب الوقف عليه وأيضا الابتداء بما بعده"[4]. ومنه الوقف على قوله تعالى: (ولقد همت به) (يوسف:24) والابتداء بقوله: (وهمّ بها) وبهذا يتخلّص القارئ من شيء لا يليق بنبيّ معصوم، وتصبح جملة (وهمّ بها) كلاما مُستأنفَا، إذ الهمّ من يوسف عليه السلام منفيّ، والهمّ الثاني غير الهمّ الأوّل.[5]

الوقف الحسن:وهو" الذي يحسن الوقف عليه، وفي الابتداء بما بعده خلاف لتعلّقه به من جهة اللفظ".[6]

نحو قوله تعالى: (لعلكم تتفكرون، في الدنيا والآخرة) (البقرة: 266)، فكلمة (تتفكرون) رأس آية، ولكن لا يفيد ما بعده معنى، فلا يحسن الابتداء به، ويحسن العود إلى الذي قبله من الكلام.[7]

وقوله تعالى: (وتعزّروه وتوقرّوه) (الفتح:9)، والابتداء ب(وتسبحوه) لئلا يوهم اشتراك عود الضمائر على شيء واحد، فإن الضميرين الأولين عائدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثاني عائد على الله تبارك وتعالى.[8]

التنغيم: نغمة الصوت هي إحدى صفاته، وكثيرا ما تكون عاملا مهما في أداء المعنى.[9]وتتوقف النغمة على عدد ذبذبات الأوتار الصوتية في الثانية الواحدة، وهذا العدد يعتمد على درجة توتر الأوتار الصوتية، وللنغمة أربعة مستويات، وهي:

- النغمة المنخفضة: وهي أدنى النغمات، وهي ما نختم به الجملة الإخبارية عادة، والجملة الاستفهامية، التي لا تُجاب بنعم أو لا.(↙).
- النغمة العادية: وهي التي نبدأ الكلام بها، ويستمر الكلام على مستواها من غير انفعال. (⟵).
- النغمة العالية: وتأتي قبل نهاية الكلام متبوعة بنغمة منخفضة أو عالية مثلها.
- النغمة فوق العالية: التي تأتي مع الانفعال أو التعجب أو الأمر.
- وقد مثلتُ لكل نوع بشاهد قرآني على النحو الآتي:

النغمة المنخفضة، نحو قوله تعالى: (أفمن هذا الحديث تعجبون) (النجم: 59-62)(↙) (وتضحكون ولا تبكون .(↙) وأنتم سامدون.(↙) أماقوله تعالى: (فاسجدوا لله واعبدوا) فهي نغمة فوق العالية؛ لأنها جاءت بصيغة الأمر.[10]

ومن الجدير بالذكر أن أديبا عالما كالجاحظ تنبّه لتأثير التنغيم على الحالة النفسية للحيوان، وأشار إلى ذلك تحت عنوان :أثر الأصوات في الحيوان" "والدوابّ تصرّ آذانها إذا غنّى الكاري"، يقول: والإبل تصرّ آذانها إذا حدا في آثارها الحادي، وتزداد نشاطا وتزيد في مشيها ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له.. والأيائل

تُصاد بالصفير والغناء، وهي لا تنام ما دامت تسمع ذلك من حاذق الصوت....والصفير تُسقى به الدواب الماء وتنفر به الطير عن البذور".[11]

ويقول تحت عنوان" أثر الصوت في الحيّة" : فالحية واحدة من جميع أجناس الحيوان الذي للصوت في طبعه عمل فإذا دنا الحواء وصفق بيديه، وتحدّث رافعا صوته خرج إليه كل شيء في الجحر، فلا يشك من لا علم له أن الحية خرجت من جهة الطاعة وخوف المعصية.[12]

ولا يخفى على المتأمل أن هذا الأثر يتركه الصوت على الكائنات الحية مرتبط بالتنغيم، فلو كان الصوت على طبقة صوتية واحدة خاليا من الصعود والهبوط، لما كان له أثر واضح.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة حين تحدث عن داوود عليه السلام، قال تعالى: (ولقد آتينا داوود منا فضلا، يا جبال أوبيّ معه والطير) (سبأ:10)، وتذكر الروايات أن داوود عليه السلام أوتي صوتا جميلا، كان يرتل به مزاميره، وهي تسابيح دينية.. والآية تصور من فضل الله على داوود عليه السلام أنه بلغ من الشفافية والتجرد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات فاتصلت حقيقتها بحقيقته، في تسبيح خالقها، ورجّعت الجبال والطير معه، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة، وتجاوب الكون كله مع ترانيم داوود.[13]

وما كان هذا التناغم والتجاوب بين داوود والكائنات ليحدث لولا أنه أوتي صوتا شجيا جميلا، استخدم فيه خاصية التنغيم، تماما كما يحدث مع آيات القرآن الكريم، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الظاهرة حين سمع تلاوة أبا موسى الأشعري فوسمه بأنه أوتي مزمارا من مزامير آل داوود.

النبر:"هو قوة التلفظ النسبية التي تُعطي للصائت في كل مقطع من مقاطع الكلمة أو الجملة".[14]

فسيولوجية النبر:عند نطق المقطع المنبور نلحظ أنشطة عدة في الجهاز الصوتي البشري، منها ما يأتي:

- تنشط عضلات الرئتين بشكل متميّز لرفع الهواء بنشاط أكبر.
- تقوى حركات الوترين الصوتيين وتتسع الذبذبات.
- يتقارب الوترات أكثر في حالة الأصوات المجهورة، ويبتعدان أكثر في حالة الأصوات المهموسة.[15]

وقد أشار القدماء إلى ظاهرة النبر في اللغة العربية: جاء في معجم الصحاح :"نبرةُ الشيء، أنبره نبرا، رفعته،.. ونبرة المغنى: لرفع صوته عن خفض".[16]

وفي تلاوة القر آن الكريم ينبّه القرّاء إلى ضرورة الضغط على بعض الحروف، وهي:

- الوقف على الحرف المشدّد، مثل كلمة: "الحيّ"و "بثّ".
- عند النطق بواو مشددة قبلها مضموم أو مفتوح، مثل: "القوّة" "قوّامين".
- عند النطق بياء مشددة قبلها مكسور أو مفتوح، مثل: "شرقيّا" "صبيّا".
- عند الانتقال من حرف مد إلى حرف مشدد، نحو "الحآقّة".[17]

وللنبر وظيفة مهمة في جميع اللغات؛ إذ لا تخلو منه لغة، فكل متحدث بلغة ما يضغط على بعض المقاطع فيها، وإنما الاختلاف بينها في استخدامه فونيما صوتيا يغير الصيّغ أو المعاني أو عدم تأثيره فيها.

ومن صور النبر "نبر الجمل" الذي يقوم على الضغط على كلمة بعينها في أحد الجمل المنطوقة؛ لتكون أوضح من غيرها من كلمات الجملة، وذلك للاهتمام بها أو التأكيد عليها ونفي الشك عنها من المتكلم أو السامع، وهذا السلوك اللغوي شائع في كثير من اللغات.[18] والنبر يكون في بعض المواضع من تلاوة القرآن الكريم، مثل: "الحآقّة" أي عند الانتقال من حرف مد غلى الحرف الأول من المشدّد، فإذا نظرنا إلى قوله تعالى: "فإذا جاءت الصآخة" (عبس: 33)، نجد لهذا النبر على حرف الخاء تأثيرا دلاليا يفيد الإحساس بصوت الصآخة التي تصمّ الآذان لشدّتها، وبذلك يكون للنبر وظيفة معنوية لا تتحقق إلا بواسطته.

ومن مواضع النبر في القرآن الكريم عند النطق بواو مشددة قبلها مفتوح أو مضموم،نحو: "القوّة"، وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعا) (البقرة: 165)، وجدنا النبر على الواو في كلمة "القوة" له معنى دلالي يفيد أن القوة لله وحده، لاسيما والآية تتحدث عن اتخاذ الأنداد من دون الله. فكان لابدّ من التأكيد على (القوة) التي تليق بالله تبارك وتعالى.

التزمين:

هو المرآة التي تعكس عواطف المتكلم وانفعالاته، وهو السرعة التي يتخذها المتكلم ويحسها السامع في الكلام المنطوق سواء أكان كلمة أم جملة، ويمكن وصف هذه السرعة بأنها بطيئة أو سريعة أو متوسطة. [19]وهو عنصر مهم في الأداء الصوتي الذي يؤثر على فهم المسموع والإحساس بانفعالات المتكلم، أو الحالة النفسية المصاحبة للنص.

وأمثّل لهذه الظاهرة الصوتية ببعض الآيات الكريمة.

قال تعالى: (وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم). (يوسف:84)، فالآية تصور حالة يعقوب عليه السلام بعدما فقد ابنه يوسف أحب أبنائه إليه، ولكي تنقل إلينا الآية الكريمة شدة حزنه وحسرته على فقد فلذة كبده جاء المقطع كله بتزمين طويل، فكلمة (تولى) فيها مد طبيعي يستغرق زمنا مقداره حركتان كما يسميه علماء التجويد، وكذلك الفعل (قال) ثم (يا أسفى) مد منفصل يؤديه القارئ بتزمين طويل يوحي بالحالة النفسية الأليمة، ثم كلمة (عيناه)وفيها المد الطبيعي، وأخيرا كلمة "كظيم"بالمد العارض للسكون، فنلحظ أن سرعة المقطع كانت بطيئة لتعبّر عن المعنى المراد، بخلاف قوله تعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر).(القمر:1-3).

فإن تلاحق الآيات بسرعة يوحي بخطورة الموقف وهو اقتراب الساعة، ويالله من هول يستلزم السرعة!!

الإيقاع:

هو إحساس بالتكرر المنتظم لمجموعات كل منها يشتمل على أحداث متشابهة ومتعاقبة.[20]

وللتفريق بين الإيقاع وبين عناصر الأداء التي تحدثنا عنها وهي: النبر والتزمين والتنغيم والوقفات، نقول: إن الأداء لا يُشترط فيه التكرار المنتظم لعنصر من عناصره، أما الإيقاع فلا بد فيه من التكرر المنتظم والدقيق لعنصر من عناصره أو لأكثر، والأداء يتصل بناحية المعنى والفكرة، أما الإيقاع فيتصل بجانب العاطفة والإحساس، فهناك إيقاع يثير الحزن وإيقاع يثير الفرح والسرور، وإيقاع يبعث الحماس والحيوية.[21]

وقد عرف الجاحظ هذا الأثر العجيب للإيقاع وهو ما عبر عنه ب"تأثير الأصوات"، جاء في ذلك: وأمر الصوت عجيب، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة، ومنه ما يسرّ النفوس حتى ترقص، بل ربما رمى المرء بنفسه من حالق، وذلك مثل الأغاني المطربة، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يُغشى على صاحبه، كالأصوات الشجيّة، والقراءات المـــُلحّنة، وليس يعتريهم ذلك من جهة المعاني؛ لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون المعاني، وقد بكى ماسروجيه من سماعه تلاوة القرآن الكريم، فقيل له: كيف بكيتَ وأنت لا تؤمن به؟ قال: إنما أبكاني الشجا، وبالأصوات أيضا يُنوّمون الصبيان والأطفال.[22]

وقوله: وليس يعتريهم ذلك من جهة المعاني، دليل واضح على إدراك الجاحظ أن التأثير في النفس سببه الصوت، والإيقاع الذي ينقل الحالة النفسية من المتكلم إلى السامع، وليس المعنى.

وقد استخدم القرآن الكريم الإيقاع الموسيقي المناسب لأجواء كل سورة من سوره، فهناك آيات كريمة تمتاز بالإيقاع السريع، وأخرى تمتاز بإيقاع بطيء وحزين، وهذا التنويع الموسيقي يتناسب مع معاني الآيات ومضمونها. فمثلا: نجد الإيقاع الذي يُطلق في جو الدعاء والضراعة والخشوع والإنابة كما في قوله تعالى: (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) (إبرا هيم:38) إيقاعا بطيئا متموّجا رخيّا، مناسبا لمضمون الآيات.

وفي قوله تعالى: (وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بنيّ اركب معنا ولا تكن من الكافرين) (هود: 34). نجد الإيقاع هنا مختلفا عن الآيات السابقة، فهو طويل عميق يشترك في رسم الهول لجوّ الطوفان والرعب، والمدود المتوالية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتّسامه مع جو المشهد الرهيب العميق.[23]

---

[1] انظر:الخولي، محمد علي، **الأصوات اللغوية**، (عمان: دار الفلاح)، 1999م، ص168.

[2] انظر: نصر، محمد مكي، **نهاية القول المفيد في علم التجويد**، ضبطها وصححها عبدالله محمود عمر، (بيروت: دار الكتب العلمية)، 2003م، ص154

[3] انظر: زين العابدين، محمود، **الأصوات العربية**، (المدينة المنورة: دار الفجر)، ص199-200

[4] نصر: محمد مكي، **نهاية القول المفيد في علم التجويد** ،مرجع سابق، ص157.

[5] انظر المرجع السابق نفسه، ص159.

[6] المرجع السابق نفسه، ص160.
[7] انظر المرجع السابق نفسه، ص161
[8] انظر: زين العابدين، محمود، **الأصوات العربية**، مرجع سابق، ص207.
[9]انظر: ربيع، عبدالله، **علم الصوتيات**،(مكة: مكتبة الطالب الجامعي)، 1988م،ط2، ص267،
[10] انظر: الخولي، محمد علي، **الأصوات اللغوية**، مرجع سابق، ص169-170
[11] انظر: الجاحظ، عمروبن بحر ،**الحيوان**، تحقيق عبدالسلام هارون، (مصر: مطبعة مصطفى بابي الحلبي)ط2، 1965م، ج4/ص193
[12] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج4/ص194.
[13] انظر: قطب، سيد، **في ظلال القرآن**،ط6، (د.ت)، ج6،ص635،634.
[14] الخولي، محمد علي، **الأصوات اللغوية**، مرجع سابق، ص158.
[15] انظر: المرجع السابق نفسه، ص160.
[16] الجوهري، إسماعيل، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط2، 1979م، **الصحاح**، ج2/ ص822.
[17]
[18] الخولي، محمد علي، **الأصوات اللغوية**، مرجع سابق،ص160.
[19] انظر: ربيع، عبدالله، **علم الصوتيات**، مرجع سابق، ص287، 289.
[20] انظر: المرجع السابق نفسه، ص194.
[21] انظر: المرجع السابق نفسه، ص294.
[22] انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، ج4/ ص294، 191.
[23] انظر: الخالدي، صلاح، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، (جدة:دار المنارة)، 1989م، ط2، ص187،185.